وحدة الهجرة القسرية واللاجئين
Forced Migration and Refugee Unit

جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY
معهد ابراهيم أبو لغد للدراسات الدولية
Ibrahim Abu-Lughod Institute of International Studies

Working Paper Series – Conferences & Public Events Module

Ibrahim Abu-Lughod Institute of International Studies – Birzeit University

غزة بين دور الضحية وفاعليتها في القضية: الدبلوماسية العامة نموذجا

GAZA BETWEEN THE VICTIM'S ROLE AND AGENCY IN THE CAUSE: PUBLIC DIPLOMACY AS A MODEL

دلال باجس وحسن عبيد

Dalal Bajes & Hasan Obaid

معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية – جامعة بيرزيت

سلسلة أوراق عمل 23/2011 (عربي) – نموذج المؤتمرات والمناسبات العامة

IALIIS-BZU-WPS 2011/23 (ARA)

CPE Module

Editor-in-Chief: Asem Khalil

Editorial Board: Yaser Amouri, Raed Bader, Helga Baumgarten, Youssef Courbage, Philippe Fargues, Roger Heacock, Marwan Khawaja, Ray Jureidini, Mehrene Larudee Majdi Al-Malki, Magid Shihadeh.

Design & Layout: Yasser Darwish

Citations' Revision: Ashraf Siam

2011

*** Co-financed by the Ibrahim Abu-Lughod Institute of International Studies (IALIIS) - Birzeit University (BZU) & the International Development Research Centre (IDRC), Canada. The views expressed in this publication cannot in any circumstances be regarded as the official position of IALIIS, BZU or IDRC. The IALIIS can be reached at: ialiis@birzeit.edu**

Electronic copy available at: http://ssrn.com/abstract=1764283

غزة بين دور الضحية وفاعليتها في القضية: الدبلوماسية العامة نموذجا

دلال باجس وحسن عبيد*

1. مقدمة

مر التاريخ البشري على امتداده بالكثير من المظالم التي يلفظها قلب الإنسان الذي يتمتع بالإنسانية وعقله على حد سواء، ابتداءً بالاستعباد بأبشع وأوضح حالاته وليس انتهاء باستعباد من نوع آخر تمثل باستعمار الشعوب التي ترى نفسها أرقى من غيرها لأولئك الغير الذين حرمتهم أحيانا من كلمة "إنسان" لتبرر لنفسها ولغيرها هذا العمل المنفّر.

والغريب في الأمر أن هذه الحلقة الصدئة لا تنكسر وإنما ينتقل الظلم والاستعباد من الجلاد إلى الضحية مرة بعد مرة، ويدعي الجلاد بأنه الضحية! فمن كان مستعبَدا في يوم من الأيام أصبح مستعبِدا يمارس نفس أشكال العنجهية والظلم الذي وقع عليه بصورة مستنسخة هي أقبح من الصورة الأم.

والتبرير سمة من سمات النفس البشرية بأشكالها البدائية؛ فلا بد لل"أنا" أن يبرر أفعاله لل"أنا الأعلى" حتى لو كان المبرر غير حقيقي ولا منطقي. ومن النفس البشرية بشكلها البدائي صعودا إلى أعقد المجتمعات يظل الإنسان يتصرف بنفس الطريقة، والنموذج الإسرائيلي خير مثال على ذلك.

2. الضحية.. بين السلبية والفاعلية

ويحق للمرء هنا أن يتساءل: ألا تستطيع المجتمعات المبدعة أن تكسر هذه الحلقة من الاضطهاد المتعاقب لتخرج بفكرة أكثر تنويرا من مجرد تقليد الغالب للمغلوب؟ وإلى متى سيظل تبرير الجلاد لأفعاله بحق الضحية مقبولا؟ لم يكتب على الضحية أن تظل سلبية إلى ما لا نهاية، بل يجب البحث عن حل آخر تخرج فيه من نمط المألوف إلى غير المألوف، ليصبح فيما بعد نهجا لضحايا من بعدها.

العالم كله في غزة.. عبارة تخرج النمط المألوف إلى النمط غير المألوف، وتحطم كل الأساطير التي قام عليها المحتل كونه ضحية "الأغيار"، ليظهر بعاره وجريمته أمام العالم.

المحتل يفرض على العالم رؤية ثنائية حادة؛ من معه ومن ضده. والسؤال هنا يكمن في ما إذا كان الجلاد يصنع الضحية، أم أن الضحية تدخل في نطاق تفاوضي مع المفاهيم والمصطلحات التي يفرضها المحتل.. أم أن هناك نمطا ثالثا خرجت به غزة؟

* تم تقديم هذه الورقة في مؤتمر: "غزة – فلسطين: الخروج من التهميش" نظمه معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية بتاريخ 1 – 2 تشرين أول 2010.

Electronic copy available at: http://ssrn.com/abstract=1764283

الضحية الإيجابية لا يعبر عنها أحد سواها، ولا يصنع صورتها عداها. وهي القادرة على توجيه صورتها لمن أرادت، وفي العالم الحداثي الذي تقوده فكرة الوفرة ورأس المال قد تكون الضحية رمزا للشفقة والاحتياجات الإنسانية، لتطغى على الحاجة إلى الحرية وحق تقرير المصير. لكن الضحية الإيجابية هي كما عرفها فرانتز فانون بأن " الأواخر يصبحون الأوائل".[1]

2-1. وقوف عند تاريخ.. لا بد منه

وصلت جدلية السيد والعبد لدى العديد من المفكرين الى عمق ابستيمي ضمن تفاوتات في ضبط هذه الجدلية كما هو عند ديكارت وهيغل وميرلوبنتي ،الا أن هناك مفكرون آخرون قرأوا جدلية السيد والعبد في ضوء الموقف الاستعماري مثل إدوارد سعيد وفرانتز فانون وهومي بابا، ليصبح الحديث عن علاقة المستعمِر والمستعمَر من المبادئ الأساسية للتبعية سلب أي موقف مستقل للمستعمرة، فأي شكل من أشكال الاستقلال مهما صغر يتنافى مع مبدأ التبعية الكولونيالية،[2] وفي وصف نعومي تشومسكي لتناقضات العولمة يرى أن "ثمة إمبريالية جديدة قد نشأت... فمنطق علاقات الشمال والجنوب الآن هو منطق الهيمنة والقسر، وفيه يبقى على الفلسطينيين أن يقبلوا حكما ذاتيا على غرار معسكرات أسرى الحرب يستطيعون في ظله أن يجمعوا الزبالة على الأراضي المخصصة لهم، طالما لا تحمل الزبالة علب صفيح تحمل ألوان العلم الفلسطيني".[3]

عملية الإخضاع هذه تتطلب ديناميكيات متعددة من السلطة والإخضاع، والتي تتطلب ديناميكيات رفض من الطرف المستعمر. والموضوع لا يقتصر على ديناميكيات تقنية، فهذا يعتبر الجزء اليسير والمادي لعملية الخلاص من التبعية، فالثقافة والمعرفة والسياسة والاقتصاد لا يمكن أن تكون معزولة عن ذلك، عملية الخلاص من التبعية عملية عنيفة كما ذكر فرانتز فانون،[4] وهي تطال كافة مجالات الحياة. وضمن المفاهيم والقيم الدولية الحديثة للعلاقات بين الدول، فهناك مركب آخر يتدخل في عملية التحرر، ويلقي بظلال ثقيلة على المستعمر، فهو مكبل بالاستعمار المباشر، ومكبل من جهة أخرى بتنكر وإخفاق "النظام الدولي" من إنصافه أو حتى إنكار الجرائم المنفذة في حقه. هكذا وضع يستدعي أدوات تحرير لا تكتفي بالعمل المقاوم التقليدي المباشر على أهميته، بل يتطلب الخروج بأساليب وطرق مختلفة والخروج من التبعية يجب أن لا يخدش أو يحطم صورة الضحية.

2-2. التنافس على موقع الضحية!

في عصر ما بعد الاستعمار تعيش فلسطين استعمارا في فترة ما بعد الاستعمار؛ فالنظام الدولي قد اختلف، وأصبحت العلاقات والقانون الدوليين مكانا مغيبا بشكل كبير للقضية الفلسطينية. وهذا الوضع المركب يتطلب من الضحية استخدام أساليب مركبة

[1] فرانتز فانون، *معذبو الأرض*، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي. (بيروت: دار القلم، 1972)، 42.

[2] هومي بابا، *موقع الثقافة* (القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، 2004)، 177.

[3] فريدة النقاش، "ثقافة المقاومة في ظل العولمة،" في *استشراف المستقبل: أوراق المؤتمر العلمي التاسع لكلية الآداب والفنون*، تحرير صالح أبو إصبع وآخرون (الأردن: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2005).

[4] فانون، *معذبو الأرض*، 7.

وأكثر فاعلية للتحرر والتخلص من التبعية. وفي نفس الوقت تستطيع المحافظة على صورتها كضحية، وذلك ضمن المجالات الثلاث التالية: المقاومة الأولية التي تعني حرفيا القتال ضد الاقتحام والاحتلال، والمقاومة الثانوية أي العقائدية والتي تعني بذل جهود لإعادة مجتمع محطم ولإنقاذ وترميم حس المجتمع وحقيقته ضد جميع ضغوط النظام الاستعماري، وثالثا العمل على تأسيس مصالح جديدة ومستقلة مع العالم.[5]

في عصر الاستعمار واحتلال "الإمبراطوريات" لدول العالم الثالث، لم تكن هذه الإمبراطوريات كفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وهولندا تظهر كضحايا، فهذا يتنافى مع إمبراطوريتها وقوتها وعنفوانها. هناك منطلقات متعددة ومركبة حركت المبررات والدوافع والسرديات وراء حركاتها الاستعمارية، إلا أنه في الوضع الفلسطيني فالموضوع يبدو أكثر تعقيدا؛ فالاحتلال الإسرائيلي ينافس على موقع الضحية مع فلسطين ولديه سردية تدعمها أسس سياسية ودينية تزيد من إظهار صورته كضحية. إسرائيل تملك سحابة تبرير فظيعة لجرائمها ضد الفلسطينيين، وهي قائمة على أساس أنها ضحية، وهناك مقولة مشهورة لغولدا مائير الرئيس الأسبق لحكومة "إسرائيل" نحو العرب وهي "لن أسامح العرب مطلقا لكونهم يجبروننا على قتلهم"![6]

موقع الضحية هو موقع تنافس حقيقي بين المستعمِر والمستعمَر، يتطلب من المستعمَر أن يتخذ تجاه ذلك إجراءات وسرديات تقوض موقع إسرائيل كضحية، وباعتقادي فإن هذا أول طريق لفكفكة الاستعمار لا سيما على المستوى الثقافي والمعرفي، لأن فشل المستعمر في تكريس صورته كضحية يعني صورة مضادة لهذه الصورة لا تحتل موقعا بينيا أو تقاربيا. هي صورة على نقيض الضحية تماما ألا وهي الجلاد.

2-3. الضحية والجلاد.. واشتقاق الخطاب

من أهم مرتكزات الاحتلال الإسرائيلي في تبرير صورته كضحية هو معرفة مسبقة بقبول روايته وسرديته من العالم "المتحضر"، لأن هناك موقفا مسبقا تجاه المحتل يقوم على أساس وحيد أنه أقل شأنا ثقافيا وعلميا وأخلاقيا، ليس ليتمكن من تبرير أعماله تجاه المحتلين، ولكن ليحقق قبولا مبدئيا لأية رواية يرويها المحتل عن أفعاله وسلوكياته.

تبقى أي سردية للمستعمَر هي سردية في الظلام لا يراها ولا يسمعها إلا الموجودون في الظلام والصدى لا يخرج من قاع المدينة. بالإضافة إلى ذلك مهارة الاستعمار في إخفاء وإنكار الواقع، ومهارة لعمليات استغلال وقرصنة ألقاب رنانة – مثل الدفاع عن النفس والحرب على الإرهاب.

الحداثة الأوروبية هي صاحبة الرواية الأولى، أعطت لنفسها الحق في امتلاك الآخر ومحوه وإعادة كتابته بالطريقة التي تناسب أيديولوجيتها وبذلك اتخذت الحداثة الغربية صيغة محددة للقضايا التحررية، وهذا يتطلب من الضحية كما قال فرانتز فانون أن تحاول

---

[5] إدوارد سعيد، *الثقافة والإمبريالية* (بيروت: دار الأدب، 1997)، 268.

[6] شولاميت الوني، *"الديموقراطية المكبلة"* مناقشة جوني منصور، مركز الجزيرة للدراسات، 30 آذار، 2010، http://www.aljazeera.net/NR/exeres/C165823E-94C9-44EF-9CFD-05AD7AA2708E.htm، تمت الزيارة بتاريخ 2010/5/25.

التغلب على العناد المتصلب لتلك الإحكامات النظرية الحداثية عينها وقلبها ضد مؤلفيها. فهي تستطيع أن تبتكر أرواحا جديدة لهذه النظريات وتعيد تفعيلها بطريقة تفيد الضحية وتدين المعتدي.[7] وهناك رشاقة لدى الفلسطينيين لامتلاك حالة الازدواج، بين الإعلان كونهم ضحية وسلوكهم وممارستهم وبنية شعورهم الأساسية بأنهم أبطال لا ضحايا.[8]

إن عملية قلب الإحكامات النظرية الحداثية هذه تتطلب من الضحية ذاتية صلبة رافضة للاستعمار وأن يبني نفسه ثقافيا ومعرفيا بحيث يلفظ قابلية الاستعمار وينفي التبعية لتكوين إرادة وسلطة شخصيتين مستقلتين، وتشكيل ثقافة لا تخرج على إطار السيادة والتحرر.[9]

يقول فرانتز فانون: "الكلمة يملكها الأولون والآخرون يستعيرونها". إن امتلاك الكلمة يعني امتلاك دلالاتها ومفاعيلها وتأويلاتها. امتلاك الكلمة يعني امتلاك صياغة الرواية برمزيتها وعناصرها وأحداثها. في الحالة الفلسطينية إسرائيل تروي روايتها والنظام الحداثي الغربي يقوم بتسويقها، لكن هذا ليس آخر المطاف، فالكلمة التي كانت ملكا للنظام الحداثي أصبحت "معولمة" بطبيعة الحال مما مكن الضحية الفلسطينية من اقتناصها وترويضها لتصبح خلقا جديدا ملائما لما ترتئيه الضحية الإيجابية مناسبا، وخير مثال على ذلك مصطلح "الدبلوماسية العامة".

2-4. هل يجدي الإنكار؟

إن موقف الحداثة هو موقف "الإنكار" تجاه الضحايا والمهمشين. والإنكار وظيفة إستراتيجية ذات تأثير مزدوج. فالإنكار يحوي إستراتيجية معقدة من التعديل والإصلاح والتنظيم والضبط؛ حيث إنها تعمل على تملك الآخر بإظهار القوة وكما يكون الإنكار في نفس الوقت دالا على حالة من عدم التملك. فنجاح التملك الكولونيالي يتوقف على تكاثر موضوعات غير متملكة وكمجاز فإن عدم التملك يعني ممارسة قوة لا تطاق ولا شرعية لها.[10] وكمثال على ذلك فالقرارات الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان هي قرارات فيها شكل من أشكال الضبط والتحكم الاجتماعي الذي يتعارض مع الادعاءات المعلنة التي تشرعن الخطاب؛ فالحضور بهذه القرارات هو حضور جزئي متحيز يملأ الوسط الذي يريد ويفرغ الوسط الذي يريد. ومن الأمثلة على ذلك أيضا القوة الإسرائيلية المفرطة التي استخدمتها إسرائيل لصد أسطول الحرية، حيث أنها لو كانت تملك زمام الأمور حقيقة لما اضطرت إلى استخدام هذا الإرهاب الذي كان طريقها لقمع الضحية ومنعها من التخلص من شكل من أشكال التبعية.

وغزة خاضعة لحالة الإنكار، فهناك إخلاء مسؤولية من قبل الاحتلال من تحمل تبعاته تجاه غزة على أساس أنها خرجت من مسؤولياته، وهذا يضعها في منطقة الكيان المتمرد الذي لا تنطبق عليه الشرعية الدولية، وتضعه في مجال استخدام القوة المفرطة، مع أن نموذج غزة هو أقصى وأقسى حالات الاستعمار؛ حصار وإخلاء مسؤولية، ونفي الشرعية، واستخدام مفرط للقوة. لذلك يجب

---

[7] سعيد، *الثقافة والامبرالية*، 274.

[8] إسماعيل الناشف، *العتبة في فتح الأبستيم* (رام الله: مؤسسة مواطن، 2010)، 90.

[9] مالك بن نبي، *مشكلات الحضارة في مهب المعركة، إرهاصات الثورة* (دمشق: دار الفكر، 2002)، 25.

[10] بابا، *موقع الثقافة*، 180.

على غزة أن تنهي حالة الإنكار هذه، وإلغاء الإنكار يتطلب فعلا مزدوجا؛ الأول يتمثل بكشف أكبر قدر ممكن من الحالة الكولونيالية الاستعمارية ضمن مفهوم تشويه المستعمِر، وهذا يبرز في موضوع الحصار وحرب غزة؛ إذ ليس من الصحي الحديث من قبل الضحية عن حالة من الحرية التامة والتحرر من قيود المستعمِر لاسيما إذا كانت السيادة منقوصة، لأن ذلك يفاقم ويزيد من حدة الإنكار من ناحية، وبالتالي الاستخدام المفرط للقوة من ناحية أخرى.

إن تشويه المستعمِر أحد شقي إنهاء الإنكار، الذي بدوره يولد الشق الثاني لإنهائه ألا وهو توليد أسئلة كبيرة على مستوى الشعوب ومن ورائها الدول، يتفاقم عجز الإجابة عنها مع مرور الزمن، وهذا يزيد بقعة فشل الحداثة الغربية واضطرابها، لتصبح ساعية لاستقرارها من خلال إحقاق حق الشعوب. لكن ذلك يتطلب نفسا طويلا من الجلد والتحمل من قبل الضحية، وإصرارا على بلوغ الهدف من خلال إتقان دورها في المعادلة بتشويه صورة المستعمِر.

السرديات الحداثية عن الضحية خلقت حواجز بين الثقافات، فالمقاومة المادية على أهميتها لا تستطيع إزالة هذه الحواجز. إن ما تستطيع أن تقوم به الضحية هو توليد الإخفاق والاضطراب لهذه السرديات والروايات عن المهمشين، وتخريب السرديات الأوروبية عن الشرق ودفعها للاعتراف بتواريخ المهمشين.[11]

استطاع المشروع الحداثي الداعم للاحتلال الإسرائيلي والحاضن الذهني له أن يلغي مكان المهمشين والضحايا معرفيا بعدما قام بالسيطرة عليه عسكريا، وعلى الرغم من عمق التجربة الإنسانية وهزال الإنتاج الفكري العام، إلا أن فلسطين كموقع مصدر ومنجم للأحداث استطاعت أن تشكل الجانب الفاشل من القضية الحداثية وتشكل جانب الإخفاق لها ومصدر الاضطراب، ومولدة التشوه للتطور الطبيعي لشخصية المحتل الإسرائيلي.[12]

2-5. الدبلوماسية العامة والخيار الثالث للضحية

من سبل تعزيز القرار المستقل للضحية بناء علاقات دولية مستقلة ومعززة للتحرر. ومن أجل ذلك يجب على الضحية أن لا تتعامل مع العالم الغربي كقالب واحد، سواء على المستوى العمودي بما يشمل مؤسسات الدولة الواحدة من أعلى هرمها حتى قاعه، وعلى المستوى الأفقي وذلك بتعدد الدول الغربية. هناك فوارق بسيطة بين هذه المستويات يجب على الضحية أن تمتلك مهارة تستطيع إحداث إزاحات واختلالات كبيرة من خلال هذه الفوارق البسيطة. فعلى سبيل المثالفإن هناك مواقف متباينة لمؤسسات الدولة الواحدة تجاه قضية حصار غزة، وذلك بين مؤسسة الدولة الرسمية ومؤسسات المجتمع الدولي. هذا الفارق تم الاستفادة منه من خلال مهارات الضحية الداعية إلى إحداث إزاحات كبيرة على الأرض، مشكلة سؤالا كبيرا فشلت الحداثة الغربية في الإجابة عنه مما مكن من إحداث ضغط عالمي وكبير في الاتجاه نحو كسر الحصار عن غزة، وهو ما يعرف حقيقة بالدبلوماسية العامة التي تعني بأبسط أشكالها تواصل الشعوب مع بعضها البعض بعيدا عن القنوات الرسمية من خلال مؤسسات المجتمع المدني وغيرها في سبيل الضغط على حكوماتها لتغيير وجهتها السياسية تجاه قضية معينة.

[11] سعيد، *الثقافة والامبريالية*، 274.

[12] الناشف، *العتبة في فتح الأبستيم*، 87.

3. الدبلوماسية العامة للمقاومة.. والخروج من التهميش إلى زمام المبادرة: أسطول الحرية نموذجا

من الصعب على من لا يمتلك الأدوات المناسبة للتعبير عن حجم كارثته أن يوصلها للآخرين، ومن الصعب على الآخرين أيضا أن يتفهموا حجم الكارثة ما لم تنقل إليهم بأدواتهم التي يفهمونها. معادلتين يفصل بينهما خيط رفيع يتمثل بامتلاك الأدوات المناسبة للتعبير عن الذات. وما لم تكن الرسالة واضحة فإن التقصير غالبا من جانب المرسل أو وسيلة نقل الرسالة. والمرسل في هذه الحالة معروف؛ شعب مضطهد يدافع عن كرامته التي يرفض الجلاد منحه إياها هبة دون مقابل. إذن فالخلل يكمن في الوسيلة، وما علينا سوى تجربة وسائل جديدة تكفل وصول الرسالة بشفافية ووضوح، وننتظر النتائج المترتبة عليها لنحكم بعد ذلك على المجتمع الدولي في صف من يقف: في صف الضحية أم الجلاد..

3-1. وسائل غزة في الدبلوماسية العامة.. الدبلوماسية العامة للمقاومة

إنه لمن السخرية بمكان أن أول من استخدم مصطلح الدبلوماسية العامة كانت الولايات المتحدة الأمريكية وذلك في محاولة لكسب "معركة القلوب والعقول" والتي زاد نيرها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر،[13] بينما نستخدم المصطلح ذاته للتعريف بجهود أولئك الذين اعتبرهم أمريكا الأعداء الحقيقيين الذين يجب أن تصب دبلوماسيتها ضد وجودهم ولتحطيم مخططاتهم وإراداتهم.

الدبلوماسية العامة للمقاومة نوع غير رائج من الدبلوماسيات العامة حقيقة، لكن ذلك لا ينفي كونه موجودا. يعتقد جوزيف نايي أن المرونة العالية للمنظمات غير الحكومية في استخدام شبكات الاتصال قد أدت إلى ظهور مفهوم الدبلوماسية العامة الحديثة التي لم تعد اتصالات حكومية مباشرة مع عامة الشعوب لخدمة السياسة الخارجية للدولة على الإطلاق، بل تتعلق ببناء علاقات بعيدة المدى مع المنظمات الفاعلة في المجتمع المدني.[14] وهذا ما باتت المقاومة الفلسطينية قادرة عليه بل محترفة فيه.

تقدم غزة نموذجا جديدا في الدبلوماسية العامة الفلسطينية، ومن الممكن أن يتعلم منها العالم. هذا النموذج يتمثل بمجموعة من المظاهر لعل أبرزها الإصرار والمثابرة، وابتكار الحلول سواء أكانت محلية أم خارجية، وتفعيل الدائرة الدولية لاسيما الإسلامية من داخل غزة لنصرة القضية.[15] وهذا ما يمثله نموذج حملة أسطول الحرية بأبعاده كاملة، والقائمة تطول.

الدبلوماسية العامة للمقاومة هي إحدى الوسائل الناجعة التي تتحرر بها الضحية من سلطة الجلاد، من خلال اكتساب شخصيتها المستقلة في المحافل الدولية الشعبية، التي تؤدي بدورها إلى تغيير في السياسات الرسمية التي رسمها العالم الحداثي لنفسه بعيدا عن أفكار وتطلعات شعوبه.

---

[13] ظهر مصطلح الدبلوماسية العامة لأول مرة من قبل السفير الأمريكي Edmund Gullion في أواسط الستينات من القرن الماضي أثناء الحرب الباردة، ويقصد به تواصل الشعوب مع بعضها لنقل أفكارها وثقافاتها وآرائها بهدف الضغط على حكوماتها لتغيير سياساتها تجاه بعضها البعض.

[14] Nye, Josef. "The new Public Diplomacy. Project syndicate," http://www.project-syndicate.org/contributor/422, retrieved on 1 march 2010.

[15] مقابلة مع د.سمير عوض/ أستاذ العلوم السياسية في جامعة بيرزيت ورئيس دائرة العلوم السياسية فيها سابقا، اجريت المقابلة في أيار 2010.

الدبلوماسية العامة قادرة على المساعدة في تفسير السياسة الخارجية لدولة ما، وليس خلقها، كما أنها تساعد أيضا في زيادة الوعي تجاه ثقافة بلد ما وقيمها، وهي قادرة أيضا على نشر وتقديم وجهة نظرنا ورواية قصتنا على طريقتنا الخاصة.[16] لهذا فنحن بحاجة إلى نوع آخر من الدبلوماسية العامة، يمثل احتياجاتنا كشعب مقاوم لم يبلغ هدفه المنشود بإقامة دولته بعد. الدبلوماسية العامة للمقاومة تتمتع بحرية أكبر من مثيلتها التقليدية؛ إذ إنها تمثل شعبا ولا تمثل دولة، شعب يسعى بكل مقوماته ومقدراته وبما يضمنه له القانون الدولي والإنساني إلى استرداد كرامته التي سلبها المحتل، وهو في هذا النوع من الدبلوماسية ليس مضطرا لأن يهادن أو يتنازل عن حقوقه بضغط من القنوات الرسمية التي لا بد لها أن تلعب وفقا للشروط السياسية المفروضة.[17]

3-2. أسطول الحرية وفك الحصار.. أيهما الهدف؟

خلال الفترة من 2008/8/22 إلى 2008/10/29 وصلت أربع سفن تحمل على متنها وفودا من القانونيين والسياسيين ونشطاء حقوق الإنسان إلى غزة، بهدف ممارسة ضغط سياسي لرفع الحصار... وقالت عضو البرلمان الأسكتلندي بولين ماكنيل وهي عضو في الحملة الأوروبية لكسر الحصار إن هدف الحملة هو تشكيل ضغط سياسي على إسرائيل. كما أن الحملة قررت إقامة أسبوع غزة في مئة جامعة أوروبية.[18] توقف هذا النشاط إبان الحرب الأخيرة على غزة، غير أن الفكرة عاودت الظهور من جديد وبقوة وزخم كبيرين بعد الحرب، إلى أن تكللت باكتمال حملة أسطول الحرية.

في تعريفها لأسطول الحرية، ضمنت هيئة الإغاثة الإنسانية في تركيا النشرة التي تم توزيعها للدعوة للمشاركة في الحملة مجموعة من الأهداف لهذه الحملة؛ حيث ورد أن "الهدف هو دعم الشعب الفلسطيني، وفضح الممارسات الإسرائيلية التعسفية، وإثبات عدم شرعية الحصار القاسي المفروض على غزة، وكسره، وإمداد غزة بالمساعدات الإنسانية".[19] لكن الأهم من أهداف هذه الحملة هم القائمون عليها والمشاركون فيها، والذين يمثلون جوهر المجتمع الصانع للدبلوماسية العامة؛ فقد ورد في نفس النشرة أن هذه القضية يمثلها "أصحاب الضمير الإنساني: مثقفون، صحفيون، وممثلو منظمات غير حكومية".[20]

إذن فالأسطول ما هو إلا وسيلة من الوسائل التي استخدمها "أصحاب الضمير الإنساني" للتفاعل مع المجتمع "الغزي"، وهذا بدوره يمثل قمة التواصل بين المجتمعات بعيدا ــولو قليلاــ عن حكوماتها، وهذا أحد أهم أشكال الدبلوماسية العامة.

إن ما يمكن استنتاجه من خلال الملاحظة والتنظير، يمكن تأكيده من خلال المواقف المعلنة للقائمين على حملة أسطول الحرية، فقد صرح عرفات ماضي رئيس الحملة الأوروبية لرفع الحصار عن غزة وأحد أبرز المنظمين للأسطول أن مسألة أسطول الحرية وكل

---

[16] Anna Tiedeman, *Branding America. An Examination of U.S. Public Diplomacy Efforts After September 11, 2001*, http://fletcher.tufts.edu, retrieved on 30 September 2009.

[17] مقابلة مع د. سمير عوض/ استاذ العلوم السياسية في جامعة بيرزيت ورئيس دائرة العلوم السياسية فيها سابقا، اجريت المقابلة في أيار 2010.

[18] محسن صالح، محرر، *التقرير الإستراتيجي الفلسطيني لسنة 2008* (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2009)، 222.

[19] النشرة التعريفية بحملة أسطول الحرية. موقع هيئة الإغاثة الإنسانية التركية (IHH). www.ihh.org.tr، تمت الزيارة بتاريخ2010/6/17.

[20] المرجع السابق.

التحركات الهادفة لكسر الحصار هي بالدرجة الأولى إعلامية وسياسية إضافة إلى المساعدات الإنسانية التي يمكن تقديمها لقطاع غزة، وبالتالي فإن الهدف من كل هذه التحركات هو كسر الحصار.[21]

3-3. الإعلام بأنواعه ودوره في تفعيل قضية الأسطول

يحق لنا في هذا المقام أن نتساءل: هل كانت وسائل الإعلام عاملا محايدا في نقل صورة الأسطول وما يمثله من أهداف أم أنها كانت جزءا أساسيا من الحملة بما تمثله من نقل الموقف للعالم وإطلاعه على المستجدات وسير القافلة أولا بأول، ومحاولة رصد ردود الفعل الإسرائيلية تجاه إصرار القافلة على الوصول إلى سواحل غزة؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد لنا أن نقتحم الصورة لنركز على بؤرة حساسة. فعندما يصبح الإعلامي جزءا من الحدث، بل صانعا له في بعض الأحيان فقد خرج من إطار التغطية الإعلامية التقليدية إلى إطار التغطية "الواعية" وهذا يعني المساهمة في رسم سياسة الدبلوماسية العامة. فـ"ليست القضية أن نتجمد عند استحضار ما حدث، القضية أن نتحرك لما سيحدث... لا شك أن ما حصل كان مفاجأة كبرى للإسرائيليين على مستوى إعلامي؛ فقد كان هناك تهيئة إعلامية متقنة".[22]

لقد قام المنظمون للأسطول بحملة اتصالات واسعة أثناء تجهيزه لدعوة الإعلام الغربي الأوروبي والعالمي للمشاركة في هذا الأسطول لتغطية ما يمكن أن يحدث، وكان عدم التجاوب هو نصيبهم في البداية لأن هذا الإعلام بشكل أساسي يميل لصالح إسرائيل وهذا شيء تقليدي معروف،[23] إلا أن الوضع ما لبث أن تغير بعد جهد مضنٍ لتشارك مجموعة من وسائل الإعلام العالمية في تغطية هذا الحدث.

ولم تكن وسائل الإعلام التقليدية هي الوحيدة الحاضرة في هذه المعركة الإعلامية، بل إن وسائل الإعلام الحديثة والـ web to applications وما يتعلق بالإنترنت والفيس بوك والتويتر وكل هذه الأساليب الحديثة كانت في غاية الأهمية لا سيما وأنها تدار من قبل منظمات مجتمع مدني يتواصل مع قرينه في كل أنحاء العالم وبإمكانات محدودة[24]، وكلما زادرت الإمكانات تعاظم التأثير وأصبح أكثر ضغطا تجاه هدف هذه الحملات، ألا وهو فك الحصار عن غزة.

لا يعيب الصحفي أن يكون له موقف من القضية التي يريد تغطيتها إعلاميا، بل يكاد يكون مطلوبا منه التفاعل معها حتى يستطيع نقل الصورة والإحساس للمتلقي في آن وحتى يكون عضوا فاعلا في سلسلة أولئك الذين يشكلون الدبلوماسية العامة لبلد ما. والفاصل بين الانتماء للقضية المراد تغطيتها أو التعاطف معها غير ملموس عند الإعلامي المحترف، لأن ذلك دليل احترافيته أصلا.

---

[21] عرفات ماضي في مقابلة له على قناة الجزيرة في برنامج حوار مفتوح بتاريخ 2010/6/12.

[22] غسان بن جدو في مقدمة برنامج حوار مفتوح على قناة الجزيرة بتاريخ 2010/6/12.

[23] عرفات ماضي في مقابلة له على قناة الجزيرة في برنامج حوار مفتوح بتاريخ 2010/6/12.

[24] المرجع السابق.

في أسطول الحرية كان هناك نوعان من الصحفيين يغطون الأحداث؛ أما النوع الأول فهم أولئك الصحفيون الذين سعوا لتغطية الأحداث من باب شعورهم أنهم جزء منها، وأنهم يشكلون دافعة لهذا العمل ومن الأمثلة عليهم مراسل قناة الجزيرة عباس ناصر الذي رفض أن يوقع على أية وثيقة تعترف بإسرائيل أو وثيقة تدين الأسطول وقال بالنص الصريح: أنا لا أعترف بإسرائيل أصلا فما بالكم أن أعترف أنني دخلت بطريقة غير شرعية"،[25] والنوع الثاني يمثل أولئك الذين شعروا بأهمية الحدث فأرادوا تغطيته ونقله إلى العالم من باب السبق الصحفي كمراسل القناة التركية هشام غوني الذي دفعه انطلاق هذه السفن من تركيا إلى تغطية الحدث، فقد صرح أنه في البداية ذهب إلى هناك قاصدا التغطية الصحفية وأردف قائلا: "ليس هدفي الأول كان المساعدة للإخوان في المنظمة ولكن العدوان الإسرائيلي جعلني غصبا عني وليس برضاي طرفا في المعادلة[26]. لكن المثير في الأمر أن كلا النوعين في النهاية قد توحدت أهدافهما وأصبحا ممثلين للدبلوماسية العامة الفلسطينية بعد أن فشلت إسرائيل في الحفاظ على صورتها كضحية من خلال مقدار العنف الذي استخدمته ضد الأسطول، والفشل في تمثيل صورة الضحية في هذه الحالة يعني الانتقال إلى الصورة المغايرة ألا وهي صورة الجلاد.

لقد نجح الأسطول في إنجاز الأهداف التي خرج من أجل تحقيقها، على الأقل من ناحية إعلامية، وهذا بدوره دفع الدبلوماسية العامة للمقاومة أشواطا إلى الأمام، ينبغي أن تكون على قدر تحمل تبعاتها والمضي قدما من أجل حصاد ثمارها. ويكفي أن بعض الصحفيين حتى ممن خرجوا على متن السفن لم يكونوا يعرفون الوجه الحقيقي لإسرائيل قبل هذه المواجهة، ولما رجعوا إلى تركيا رأوا أن الشعب أيضا غيّر نظرته تماما[27].

3-4. المنظمات الأهلية ومؤسسات المجتمع المدني على الواجهة من جديد

إن المنظمات الأهلية هي الأكثر قدرة على الانخراط بمؤسسات المجتمع المدني الأجنبية كونها تمتلك المصداقية أكثر من الحكومات، بسبب نقدها أحيانا لتلك الحكومات. كما أنها تمتلك طرقا طبيعية جدا للاندماج مع المؤسسات الأخرى وأفراد المجتمع، مما يزيل الشكوك حول دوافعها،[28] وهي تعمل على تحقيق أهداف بعيدة المدى وتلك التي قد تستغرق وقتا أطول من عمر الحكومات نفسها في الدول الديمقراطية أو تلك التي يتم تداول السلطة فيها بشكل دوري منظم.[29]

[25] عباس ناصر في مقابلة في برنامج بلا حدود على قناة الجزيرة بتاريخ 2010/6/2.

[26] هشام غوني في مقابلة في برنامج حوار مفتوح على قناة الجزيرة بتاريخ 2010/6/5.

[27] المرجع السابق.

[28] Riordan, Shaun, "Dialogue-based Public Diplomacy: a New Foreign Policy Paradigm?," *in The New Public Diplomacy Soft Power in International Relations, edited by Jan Melissen* (New York: Palgrave Macmillan, 2005), 191.

[29] دلال حامد، "الدبلوماسية العامة الفلسطينية بعد الانتخابات التشريعية الثانية" (رسالة ماجستير، جامعة بيرزيت، 2010)، 58.

هذه المرة تزعمت هيئة الإغاثة الإنسانية التركية حملة أسطول الحرية، بالتعاون مع جمعيات ومؤسسات وأشخاص رافضين للحصار الإسرائيلي على غزة. وقد كانت أهدافهم واضحة، وتحركاتهم شفافة وعلنية. ويصرح السيد حسين أوروش ممثل هيئة الإغاثة الإنسانية التركية أن هدف المؤسسة وبقية الجمعيات والمؤسسات كان أن يصلوا إلى غزة أو يقاوموا منعهم من الوصول إليها حتى النهاية، "كلهم كانوا جاهزين كل سكان السفينة كانوا جاهزين ومنظمة الغوث الإنساني كانت جاهزة لهذا الأمر".[30]

وحدث ما لم يكن بالحسبان، وتعرضت سفن أسطول الحرية إلى أشد أنواع القمع والترهيب الذي وصل إلى حد القتل بدم بارد ودون دوافع ومبررات. وكانت المكينة الإعلامية والمؤسسات الخيرية حينها جاهزة لنقل الأحداث إلى بقية العالم ليتعرف على الوجه البشع للاحتلال، فالرسالة التي وصلت العالم كانت أكثر فاعلية من المستلزمات التي كانت تحملها السفن لإغاثة المحاصرين رغم أهميتها.[31]

وانقلب السحر على الساحر الذي خسر دوائر شعبية ورسمية خرجت بشكل عفوي لم يكن القائمون على الحملة يحلمون أن تنضم إليهم. كل هذا يدل على أن المعركة الإعلامية والمدنية الإسرائيلية التي تخوضها ضد أسطول الحرية وضد القضية الفلسطينية بدأت في التغير وبالتالي فإن الفلسطينيين وأعوانهم من أصحاب مؤسسات المجتمع المدني بحاجة إلى تحضيرات أكبر في المستقبل ليكونوا عند الحدث.[32]

4. الخاتمة

تستطيع الضحية إظهار مأساتها دون تملق أو نقصان، بإثارة الفوضى والتشتت القيمي للمجتمع الغربي الذي ساهم في تأسيس الصهيونية وتشتيت الشعب الفلسطيني. وتبقى هذه القيم مضطربة على وقع الاضطراب الحاصل في فلسطين، ولا يبدأ استقرارها إلا بوعيها بعجز القانون العالمي وتناقضه في إنصاف العالم. لكن من الممكن أن يستقر الوعي الأوروبي إذا وجد شكلا واضحا للجلاد والضحية، حتى لو لم يكن الجلاد هو الجلاد والضحية هي الضحية، أي قلب الموازين. ومن هنا يصبح دور الضحية أصعب؛ فالدور الأول تغيير ما تكدس في أذهانهن ومخيلتهم عمن هو الضحية والجلاد، والدور الثاني إظهار مقدار الإخفاق والعجز والإنكار للحضارة الغربية لحقوق الآخرين، ومن ثم إظهار الاضطراب الذي لا يهدأ إلا بإنصاف الضحية.

على الضحية عدم استعارة كلمات الآخرين، بل تقويضها وبناء مقولات جديدة تعبر عن مأساتها، بأدوات تستحوذ على مخيلات الشعوب، وقد أبدعت غزة في استخدام الدبلوماسية العامة كأداة فاعلة لنقل العالم أجمع إلى غزة، وأصبح الحصار مضروبا على من طوقها.

---

[30] حسين أوروش في مقابلة في برنامج حوار مفتوح على قناة الجزيرة بتاريخ 2010/6/5.

[31] شبكة فلسطين الإخبارية، "محمد كايا يستبعد قصف اسطول الحرية ويؤكد وجود خطة لتسيير قوافل تضامنية شهرية،" 21 ايار، 2005، http://www.pnn.ps/index.php?option=com_content&task=view&id=83602&Itemid=55، تمت الزيارة بتاريخ 2010/7/5.

[32] عرفات ماضي في مقابلة له على قناة الجزيرة في برنامج حوار مفتوح بتاريخ 2010/6/12.

5. لائحة المصادر والمراجع

بابا، هومي. *موقع الثقافة*. القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، 2004.

بن نبي، مالك. *مشكلات الحضارة في مهب المعركة، إرهاصات الثورة*. دمشق: دار الفكر، 2002.

حامد، دلال. "الدبلوماسية العامة الفلسطينية بعد الانتخابات التشريعية الثانية." رسالة ماجستير، جامعة بيرزيت، 2010.

سعيد، إدوارد. *الثقافة والإمبريالية*. بيروت: دار الأدب، 1997.

صالح، محسن، محرر. *التقرير الإستراتيجي الفلسطيني لسنة 2008*. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2009.

فانون، فرانتز. *معذبو الأرض*. ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي. بيروت: دار القلم، 1972.

الناشف، إسماعيل. *العتبة في فتح الأبستيم*. رام الله: مؤسسة مواطن، 2010.

النقاش، فريدة. "ثقافة المقاومة في ظل العولمة." *في استشراف المستقبل: أوراق المؤتمر العلمي التاسع لكلية الآداب والفنون*، تحرير صالح أبو إصبع وآخرون. الأردن: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2005.

الوني، شولاميت. *الديموقراطية المكبلة*. مناقشة جوني منصور. مركز الجزيرة للدراسات، 30 آذار، 2010.
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/C165823E-94C9-44EF-9CFD-05AD7AA2708E.htm، تمت الزيارة بتاريخ 2010/5/25.

النشرة التعريفية بحملة أسطول الحرية. موقع هيئة الإغاثة الإنسانية التركية (IHH) www.ihh.org.tr، تمت الزيارة بتاريخ2010/6/17.

شبكة فلسطين الإخبارية، "محمد كايا يستبعد قصف اسطول الحرية ويؤكد وجود خطة لتسيير قوافل تضامنية شهرية،" 21 ايار، 2005،
http://www.pnn.ps/index.php?option=com_content&task=view&id=83602&Itemid=55، تمت الزيارة بتاريخ 2010/7/5.

Nye, Josef. "The new Public Diplomacy." Project syndicate. http://www.project-syndicate.org/contributor/422, retrieved on 1 march 2010.

Riordan, Shaun. "Dialogue-based Public Diplomacy: a New Foreign Policy Paradigm?." *In The New Public Diplomacy Soft Power in International Relations*, edited by Jan Melissen,??. New York: Palgrave Macmillan, 2005.

Tiedeman, Anna. Branding America An Examination of U.S. Public Diplomacy Efforts After September 11, 2001. http://fletcher.tufts.edu , retrieved on 30 September 2009

6. المقابلات

- مقابلة مع د.سمير عوض/ استاذ العلوم السياسية في جامعة بيرزيت ورئيس دائرة العلوم السياسية فيها سابقا، اجريت المقابلة في أيار 2010.
- عباس ناصر في مقابلة في برنامج بلا حدود على قناة الجزيرة بتاريخ 2010/6/2.
- حسين أوروش في مقابلة في برنامج حوار مفتوح على قناة الجزيرة بتاريخ 2010/6/5.
- هشام غوني في مقابلة في برنامج حوار مفتوح على قناة الجزيرة بتاريخ 2010/6/5
- عرفات ماضي في مقابلة له على قناة الجزيرة في برنامج حوار مفتوح بتاريخ 2010/6/12.
- غسان بن جدو في مقدمة برنامج حوار مفتوح على قناة الجزيرة بتاريخ 2010/6/12